# التآلف الحضاري في رواية أبعد من ذاكرة المدينة

## ﴿دراسة نقدية﴾

د. فليح كريم الركابي

كلية الاداب / جامعة بغداد

الحضارة صورة الحياة البشرية المشرقة التي لها قدرة السيطرة على مصادر البيئة المختلفة ، وتعني الاقامة في الحضر والارياف ، ونقيضها البداوة ، فالاستقرار في مكان ما يعني بدء المجتمع بتأسيس الحضارة ، وهي " ليست من صنع الفرد، وانما يصنعها المجتمع البشري، او بالاحرى المجتمعات البشرية ، لان اجتماع البشر، وتضافر جهودهم، وتراكم انتاجهم، وتفاعلهم مع البيئة اساس لنشوء الحضارة وتطورها . وان عمر الفرد محدود بينما عمر المجتمع والحضارة طويل ،وهما دائمان ، ويتطوران باستمرار ، وقد لا تكون الحضارة اصيلة اي من صنع واحد بل وليدة اتصال وتمازج شعوب متعددة، ويظهر ذلك كلما تطورت الشعوب ووسائل الاتصال"(١) .

والحضارة سلوك ايجابي يتبعه الانسان في حياته ويكمله من بعده الاخرون، وتخلد بعدهم ، وكل شعب يمتلك كماً حضارياً تراكمياً يكون له الاثر في مستواه الفكري والثقافي ،وقد اثرت الحضارات الانسانية بعضها في بعض سلبياً او ايجاباً ، اما عن طريق التجارة او السياحة،او الغزو او الاختلاط او الهجرة ، والطريق الاخير (الهجرة) وسيلة الاتصال الحضاري في رواية " ابعد من ذاكرة المدينة " للكاتب الاردني (مفيد نحلة) .

رصد الكاتب ظاهرة الهجرة من الشرق الى الغرب في العقود الاخيرة من القرن العشرين ، وحاول ان يقدم لنا الانموذج الحضاري الجديد ، وسلوك اولئك الافراد في بلاد الغربة بدقة وواقعية ، فمنهم من تآلف مع المجتمع والبيئة الغربية وانصهر في بودقتها ،ومنهم من نفر منها فاخفق في علاقاته وعاد ادراجه يعصف به الحنين الى المنبع ، لعدم ملائمة البيئة الجديدة له ، ويعد هذا الموضوع شيقاً في ادبنا العربي الحديث ، وقد تناوله بعض الادباء المبدعين وقدموا الى القارئ اعملاً روائية خالدة، " فقد صدرت روايات عربية عديدة تناولت هذا الموضوع ، وبشكل فني ابتداءً من نداء المجهول لمحمود تيمور والحي اللاتيني لسهيل ادريس، وروايات محمد ديب ، وانتها بروايتي موسم الهجرة الى الشمال للطيب صالح وقصة حب مجوسية لعبد الرحمن منيف"[٢] . وقبل كل ذلك كانت رواية عصفور من الشرق لتوفيق الحكيم ، وقنديل ام هاشم ليحيى حقي وغيرهم

وينفرد الروائي (مفيد نحلة) من بين الروائيين العرب في تقديم الانموذج الحضاري الجديد في روايته (ابعد من ذاكرة المدينة) التي تتميز " عن غيرها من الروايات بان بطلها امرأة لا رجل ، وانها استطاعت ان تقهر الغربة ، وتحقق بعلاقاتها الانسانية ، التي نسجتها هناك ، انتصارات تشبه المعجزات ، وخلافاً للرجال في الروايات الاخرى، الذين عجزوا عن الانخراط كلياً في الحياة الاوربية، او حتى مجرد التعايش المريح معها "[٣] . وهذا حدث فني طريف في عالم الرواية العربية ، حين وضع الكاتب المرأة الشرقية في مواجهة الاحداث الصعبة ، ولاسيما بعد ان خدعها الشرقي في بلاد الغربة ، فتقف (فرح) بطلة الرواية بصلابة امام تيار الحياة الجارف في المانيا، وتتمكن من التغلب على المصاعب الاجتماعية والاقتصادية ،وتتآلف مع المجتمع الجديد ، واستطاعت بفعل اصرارها ان تبني علاقات وطيدة، وتؤسس شركات كبيرة ورؤوس اموال طائلة بفضل عوامل خارجية ،او شخصية في مدة (زمنية قصيرة تمكنت من الحصول على الاقامة في المانيا ، واستطعت ان اكون عاملة ملفتة للنظر في شركة مقاولات

محدودة في ليمبورغ اتقاضى اجراً يعيلني ،ويوفر لي حياة امنة، قال لي احدهم ذات مرة ... انت امرأة عظيمة ولو لا جرأتك لما تمكنت من قطع الطريق الذي اهلك لان تكوني انسانة متميزة)[٤] . فضلاً عن ذلك ان الثراء لن يتمكن من قتل مشاعرها ،اتجاه الوطن الذي بقيت تحن اليه وترسل المساعدات المالية الى فقرائه .

لقد عاش مفيد نحلة احداث روايته ،فكان موضوعياً وواقعياً في تناوله لها وكيفية ادارة الصراع ،الذي يلهب حماس القارئ من اجل الوصول الى نهاية الاحداث وما آل اليه مستقبل (فرح) ،وقد وقر في ذهن الرجل الشرقي ،ان الاخفاق والانهيار قرينا المرأة الشرقية من دون الرجل وسوف تؤدي بها الغربة الى الانزلاق ،وفقدان الصواب ، لكن النتيجة كانت مغايرة لارض الواقع تماماً ، فتألفت البطلة ، واستمرت حياتها بنجاح لا مثيل له ، وان الاغتراب كانت له مردودات ايجابية لاسلبية كما كنا نتوقع ،وذلك ما سنلاحظه من خلال سير احداث الرواية ،تناول البحث فكرة الرواية ،ثم بناء الشخصية ، وبناء الزمان والمكان والسرد .

فكرة الرواية :

رواية (ابعد من ذاكرة المدينة) نص مفتوح على صاحبة ،وهي تعبير عن ارائه ورؤاه في الشرق والغرب وما عانته الطبقات الاجتماعية في الاردن جراء التقلبات السياسية مطلع السبعينيات ،وقد كان من ابرز افرازات تلك الاوضاع غير الطبيعية هجرة العديد من الرجال الى جهات مختلفة من العالم ،ومنها الغرب الاوربي على الخصوص ،بحثاً عن فرصة عمل لتحسين ظروفهم الاقتصادية وقد تحقق لهم ذلك ، فعاد بعضهم الى الوطن بحثاً عن النصف الاخر ،اما ارضاء لنوازعه ،او لمسايرة الاعراف والتقاليد الاجتماعية السائدة وعلى الرغم من ذلك رافقهم التناقض والاضطراب فضاعوا في خضم الحضارة الغربية المتلاطم ، فآثر

الكاتب على تهميش ادوارهم لانهم لم يكونوا اسوياء في داخلهم وذلك ما حدث فعلاً (لحامد العايدي) الذي عاد الى عمان مفضلاً الاقتران ببنات وطنه طالباً يد فرح: (افلحت شيخة ام حسن في اقناعي .. حددت شروطها ،وافرطت في الضحك، سردت على مسمعي كل ما حفظته عن (العايدي) منذ ان ارتحل الىالمانيا، الى ان عاد .. تحمل على ضيق سنوات الغربة ،عشر سنوات ثقيلة ، اثمرت عن اقامة دائمة هناك ، لم تستطع تلك السنوات ان تنتزع افكاره ،ذلك الخيط الذي يربطه بماضيه ..ابعدوه عن ارضه، ألقوا به ليلاً وراء النهر.. وحين غادر مدينته غرب النهر زحف الى عمان فاحتضنته فتى، وألقت في احيائها الفقيرة كغيره من الناس، في عمان لا يجوع الناس ،مدينة اكبر ما فيها انها تحتضن الفقراء، فيخرجون من رحمها اثرياء ، يغادرونها زمناً ثم يعودون اليها لتعانق احزانهم ، وافراحهم ، هكذا خرج منها حامد (العايدي) وها هو يعود اليها)[٥] .

لقد ابعد العايدي قسراً عن الضفة الغربية الى الاردن التي هاجر منها الى اوربا تحت ضغوط سياسية واقتصادية بحثاً عن فرصة عمل ،وعاد اليها بعد عشر سنوات بحثاً عن النصف الاخر ، ويبدو من خلال النص ان سنوات الغربة لم تغيّر افكاره ، فاقترن بـ (فرح) هرباً من تركات الحضارة الاوربية الثقيلة التي رافقته الى المانيا زوجة مخلصة وفية لكنه قلب لها ظهر المجن كاشفاً عن شخصية ثانية تختلف تماماً عن الاولى فكان لا ابالياً ،مخادعاً وزير نساء :(ادخلت المفتاح في الباب ،ادرته قليلاً ،كانت شوكته المعدنية تلتصق بالفتحة، ولاتدور ادركت ان حامد في البيت وانه ينام ،اسرعت الى الشباك ، وقبل ان امد يدي الى الشباك اقرعه ،اخرجت امرأة رأسها وطلت .. ثم قفزت هاربة عدت الى الباب، افتحه ، اقبل حامد في حركة تمثيلية يتثاءب ، دخلت البيت رائحة العطر يتدفق من فراشي)[٦]. لقد كان حامد العايدي يعاني ازدواج الشخصية وذلك ما عرّض البطلة، الى الانهيار والضياع في خضم الغربة ،لكن الظروف الملائمة وفرها الروائي لبطلته ، بأبعدها عن مهاوي الانزلاق ،او التفكير بالعودة الى الوطن تجر

اذيال الخيبة والخذلان لا بل تآلفت مع الحضارة الجديدة،وكتب لها النجاح في ارساء علاقات متينة مع كثير من الناس الالمان ،وامتلاكها رؤوس اموال طائلة . بعد اقترانها بالماني من اصول مغاربية ، ان العربي لن يتمكن من تجاوز محنته الاجتماعية والنفسية، وذلك ما تجسد في شخصية العايدي الذي بقي على علاقاته الزائفة فتسبب في تحطيم بيت الزوجة،والقاء فرح في خضم الازمة وجعلها تواجه مشكلة كانت الشريك في رسم ابعادها – بحثاً عن حياة افضل – حين وافقت على الاقتران برجل مجهول التصرفات بالنسبة لها :(ها انت تحت الشمس يافرح – حين عشقت القمر في (المصدار) ، قالوا جنت فرح، وحين تركت وراءك (سقف الليل) قالوا ماتت ابنة (الشيخة سيدة نصرة) ها انت مشردة تتعلقين بالحلم فلا احد يبكيك علىقارعة الطريق)[٧] على الرغم من وقوعها في المحنة، لكنها تمكنت من تجاوزها ،والانصهار في المجتمع الجديد ،دون النظر الى العواقب التي سيسفر عنها ذلك الانصهار ،وعدم رغبتها بالعودة الى الوطن امرأة مطلقة ، اخفقت في كل شيء ، لقد تألفت البطلة ، وتمكنت ان تكون مؤثرة في المجتمعين الغربي والعربي، وانتصرت على محنتها ودسائس العايدي وتأمره عليها مع بعض النسوة الغربيات :(هل اعود الى المصدار اركن الى بيت فقير في الحي تلاحقني اشاعات النسوة فأموت قهراً وكمداً ،ام ارتحل الى مدينة اخرى بعيداً عن هاري وفانس ،وسالي ترى كيف يكون حالي لو غادرت ليمبورغ)[٨]. لقد توافرت عناصر عديدة مكنت فرح العصامية من الوقوف بوجه تيار الحياة الجارف في بلاد الغربة ، وتجاوز الصعاب والتآلف مع الحضارة الجديدة ، ومن هذه العناصر الشيخة الالمانية (لورا) التي تعرفتها فرح مصادفة في معهد تعليم اللغة ، فانتشلتها من محنتها حين اسكنتها في بيتها بعد انفصالها عن حامد العايدي الذي ألقى بها الى الشارع . لقد خلق الروائي من هذه القضية موضوعاً شيقاً حلق في معالجته روائياً ودرامياً حين جعل عنصر الخير في أعلى مراحل تألفه وثباته بوجه عنصر الشر المندحر ، فالشيخة (لورا) اوصت حين اردكتها الوفاة ببيتها

وسيارتها وبعض رصيدها الى (فـرح) الشـرقية المتداعيـة وسـط امـواج الغربـة، وذلك ما جعل موقف البطلة قوياً وتماسكاً فتآلفت مـع مجتمعهـا الجديـد ،متجـاوزة الكثير من المحن والمصاعب التي توقعها لها العـايدي بعد الانفصـال :( وفـي كـل مرة اخرج للعمل ينتابني شعور حزين ، حتى اذا عـدت اسـعد بـالفرح حيـن اراهـا تتعلق بي ،اجلس اليها ،اضاحكها ،ذات مرة .. اسرعت اليها فتحـت البـاب ، كـان احدهم يجلس اليها يكتب ، اوراقه .. تبسم راضية حين تصافحني ادركت ان لـورا تخفي عني شيئاً .. لم احاورها .. سكنت اليها اقبـل رأسـها ... بقيـت لـورا تغفـو على سكرات الموت في كل مرة اعود الى البيت يخامرني شك في ان لا اراها ذات مرة قرعت الباب دخلت على عجل .. رأيت لورا تنام في سريرها هادئة تغفو الـى أبدية الزمن احرك اصابعها .. جسدها.. لم تستجب)[٩] ماتت لورا ، وشعرت فرح بالوحدانية والغربة وعلى الرغم من ذلك استمرت تعمل ،وتسهر وتقيم علاقات مع نساء ورجال المان ، قسـم منهـم حـاول خداعهـا والاخـر كـان يقيـم معهـا علاقـات صادقة.

لقد ساعدها اصرارها على الثبـات وعـدم الـتراجع :(ان بقيـت علـى هـذه الحال فان اشياء اخرى قد تحاصرك في (بادمز) و(ليمبورغ) تتحدد علاقات الناس بقدرتك على العيش ،ولن تكوني وحيدة مادمت قادرة على تحصين نفسـك بـالعمل والثقـة والطمـوح ...انـت الان قـادرة علـى الانبعـاث فـي هـذه الارض ، امـا ان تراجعت فخير لك ان ترحلي الى الشرق)[١٠] .

لن تتراجع (فرح) وحثت السير الى امام مقررة العيش في الغـرب متآلفـة مع الحضارة الاوربية لكنها لن تنسى حي المصدار محلتها الفقيرة في عمان ، لقد استثمر الكاتب موضوع الهجرة الى الغرب جراء الظروف الاستثنائية فـي الاردن ليقدم لنا عملاً روائياً جميلاً تجلى مـن خـلال السـرد انصهـار المـرأة الشـرقية فـي بوتقـة الحضـارة الغربيـة ، ليؤسـس لموضـوع يعانيـه الواقـع العربـي هـو مكانـة المرأة في المجتمع ، وتصرفات الرجال في الغربة الذي انعكس سلباً على المواطن

المغترب لانه لم يكن متوازناً اساساً في وطنه ، فظهرت ازدواجية الشخصية عند (حامد العايدي) الذي مثل عنصر الخديعة والخيانة، بينما عناصر الخير موجودة في كل مكان من انحاء العالم في لورا الالمانية التي كانت رمز السمو الخلقي في الحضارة الاوربية حين احتضنت فرح وانتشلتها من حالة الضياع والفقر :(هذا مكانك يافرح .. كم تمنيت ان تأتيني واحدة تؤنس عليّ وحدتي ربتت على كتفي ، لن يؤذيك احد هنا ، وغداً ، سأتدبر امرك في عمل يريحك لسنوات مقبلة)(١١) .

ان زواج فرح من حامد لم يكن بسبب الرغبة المخلصة بالزواج من الطرفين كما يبدو من سير احداث الرواية بل ان كل واحد منهما اراد الهرب من واقعه نحو واقع افضل، فحامد اراد ان يرضي مجتمعه، وبعض نوازعه الشخصية لانه اشبع رغباته من المرأة الرخيصة في الغرب لذا اخفق منذ الايام الاولى حينما وقع في مستنقع الخيانة الزوجية ،اما فرح فكانت تبحث عن فرصة تنتشلها من واقع الفقر واليتم المبكر ،وكانت راغبة بالترحال والتطلع نحو مجتمع جديد وذلك ما حققه لها الزواج لكن الخلاف دب بينها وبين حامد منذ وصولها الى المانيا بسبب خيانته، وقد حاولت البطلة ان تقابل زوجها بالمثل حينما وجدته مع امرأة غريبة ،فعدم الثقة كان موجوداً ويحتاج الى شرارة بسيطة كي يستعر اوار الفتنة وذلك ما حدث فعلاً .

(ضحكة امي تثير فيّ شطحات الى الزمن الاتي تحملني الى مدائن عامرة بالحياة بعيداً عن عفونة هذا الحي المتداخل مع احياء كثيرة على طرفي الطريق لم اعد اتصور اني قادرة على البقاء هنا والموت في هذه الازقة)(١٢) .

لقد اصرت الشيخة نصرة ام فرح على زواج ابنتها المبكر لتخلصها من واقع اليتم المرّ ، وظلم بعض بني الانسان لها حين استحوذوا على ثروة ابيها ، فكان واج مصلحة:(الله.. هل ادارك نفسي واعلن رفضي، لا.. لن لفعلها فملكوت السفر يعانقني ،ويرفعني الى فضاءات بعيدة ارى نفسي معها اتوحد فيها)(١٣) .

لقد تحقق حلم السفر والثراء وصارت فرح تملك جنسية المانية وتآلفت مع المجتمع الجديد منصهرة فيه وكأنها امرأة غربية ، وقد حافظت على عفتها على الرغم من علاقاتها مع بعض الرجال والذهاب معهم الى المراقص وقضاء سهرات ليلية حتى الصباح مبتعدة عن الرذيلة وذلك ما حصل لها في بيت هاري.

(لم انم – كنت اسمع انفاسه تخترق الجدار ساخنة هل اندس في احضانه أم اظل على عفتي ،تذكرت في الحال ما قالته العجوز (لورا) حين تأسرك الشهوة شدي على مشاعرك قليلاً ، اياك ان تفسدي لحظة الهوى فلا تلومنَّ بعدها إلا نفسك)[١٤] . لقد صانت فرح نفسها وكانت محط اعجاب التاجر الكبير ألفريد الذي تزوجها فيما بعد وعاشت معه حياة سعيدة ورزقت بـ (ساري) رمز الاستمرارية في الحياة في بلاد الغرب. وبعد وفاه ألفريد حصلت عل ثروة طائلة ، ومركز اجتماعي مرموق وعلى الرغم من ذلك الثراء بقيت فرح على اتصال بالمنبع ،ان موضوع الرواية طريف باحداثه وقد سبر الروائي اغواره فجاء مشوقاً وممتعاً مؤكداً اصالة المرأة العربية واعتزازها بحضارتها ومجتمعها .

## بناء الشخصية :

الشخصية من العناصر الرئيسة في بناء العمل الروائي وجاز ان تكون حقيقية او خيالية في مجتمع يخلقه الاديب المبدع هو المجتمع الروائي وهي (احد الافراد الخياليين او الواقعيين الذين تدور حولهم احداث القصة او المسرحية)[١٥] . والعمل الروائي يحاج الى العديد من الشخصيات التي تؤدي ادواراً مختلفة بحسب حاجة العمل الفني وتعد تلك الشخصيات دون مرتبة البطل الرئيس وان اتصفت ببعض صفاته[١٦] وتختلف ادوارها فهناك الشخصيات البسيطة والمركبة والمسطحة والنامية والمتطورة التي تظهر من خلال سير الاحداث الرواية ،والشخصية الروائية (تركيب ابدعته مخيلة الراوي وجسدته اللغة)[١٧] . وتسمى باسماء محددة لها دلالاتها يختارها الاديب داخل العمل

الروائي وجاز ان يستخدم اسماء منفردة او مقترنة بلقب او كنية وهناك دلالة للاسماء يقصدها الروائي لتكون معبرة عن بعض افكاره ، وتصنف الشخصية الى شكلية ومضمونية وتقدم اما مباشرة باسمها او غير مباشرة ، كأن يستعان بضمائر الحضور او الغياب او الكلام او الخطاب ، وتنقل الشخصية من خلال السرد او الحوار قضية عامة يقصدها الاديب لغرض المعالجة او بناء العمل الفني عليها (دون اللجوء الى الراوي لتقديم الشخصيات تأكيداً للموقف الجمالي الذي رسخته التقاليد الروائية الاجنبية والعربية)(١٨) .

تعد الرواية من الاعمال الادبية المهمة اليوم لانها تقدم الشخصية مجسدة او قريبة من الواقع وتقديمها معيار بنائي يرتبط في تحليل بناء الشخصية واول ما يطلعنا من الشخصية اسمها الذي يميزها ويبعدها عن الاختلاط بالاخرين ، ويجب ان يكون مطابقاً للواقع والاحداث مطابقة تامة لكي لا تحدث ثغرة في البناء الروائي ،فقد استخدم مفيد نحلة اسماء كثيرة ومتنوعة عربية واجنبية بحسب مكان الرواية ومتطلبات بنائها ، وكانت هناك شخصيات متوازية مثل حامد يوازي سهل الفياض بالخلق والتصرفات وفرح توازي لورا بالطيبة والنزاهة، وفانس وسالي واسترد شخصيات المانية متوازية والمقصود بالتوازي (قانون من قوانين البناء الروائي ،مسؤول عن سير حدث خاص بشخصية روائية بموازاة حدث آخر خاص بشخصية اخرى)(١٩) وتوحي الاسماء بصراع الاجيال في هذه الرواية فالجيل الاول يمثله من النساء ام حسن ،سيدة نصرة ، شيخة فاطمة بدوي ، وشيخة حمدية ومن الرجال يمثله حمدان المفلح ، سهل الفياض وحامد العايدي ، الجيل الثاني تمثله فرح ، وسعد ، ورعد، الجيل الثالث اسماء المانية مثل هاري ، استرد ،لورا ، فانس ، سالي ، ايلين ، الفريد وشخصيات اخرى كثيرة لان اغلب احداث الرواية دارت في المانيا والكاتب اراد توسيع دائرة معارف البطلة . فبرز صراع الاجيال في الرواية . وكان حامد وسهل شخصيتين منفرتين .والجيل الرابع يمثله (ساري) رمز ديمومة جذور البطلة في الغربة التي تآلفت معها وعشقتها ،

يظل الناس هناك كالماء الزلال يتدفق في خير وبركة يتلاحمون يتصادقون يتعاطفون فيما بينهم لكن الشرقي يشعر بالاغتراب والانفصال : فـ(في بيت (لورا) مكثت هذه الحقبة الزمنية دون ان يقرع بابي جار الا اذا كانت له حاجة لايعرفون عن حركتي في هذه المتاهة المحزنة شيئاً لم اجلس الى واحدة من الجارات ابوح لها باسراري ،حين أتألم ، وحين يجرفني القلق اتعلق بخيط واه عله يخفف عني هذا البعد التشاؤمي حتى سهل الفياض الذي تآمر على حياتي مع صديقيه حامد العايدي ، ابتعد عني لم يحاول التقرب مني)[٢٠] .

لقد تكمن الروائي من بناء الشخصيات بناء يتلاءم مع الاحداث كي تكون قريبة في تجسيدها من ذهن المتلقي لان الراوي هو (الصوت الخفي الذي لا يتجسد الا من خلال ملفوظه)[٢١] . وهو شخصية عليمة يبتدعها الروائي ، ومثلتها فرح التي اختارها مفيد نحلة ، واختار لها المانيا مكاناً ،او مسرحاً للاحداث ، البلد المتفوق صناعياً واقتصادياً ،ويتمتع افراد مجتمعه بالرفاهية ، وارتفاع مستوى المعيشة ،وكانت الشخصيات البؤر التي تتمركز فيها الشفرات التخمينية والتأويلية والدلالية الرمزية ،والاحالية وكانت فرح الشخصية المركزية في الاحداث كلها، وادارت عناصر الصراع، وهي قوة وعي الرواية حين عاشت صراعاً على جبهتين الأولى ضد حامد العائدي وأنصاره والثانية ضد المجتمع الالماني من اجل اثبات مكانتها في المجتمع الجديد لقد مرت هذه الشخصية بمراحل معقدة حتى تآلفت مع الحضارة الجديدة من دون الانغماس في (تفاهة الحضارة التي يمكن للبدائي المثقف تجريبها)[٢٢] وان العجوز الالمانية لورا كانت وراء ذلك فجنبت فرح الانهيار او السقوط .

ان الصراع النفسي والصراع الخارجي ارسى دعائم شخصية البطلة في البناء الروائي التي عاشت مفارقة في زواجها من ألفريد على الرغم من اتحاد نزعتهما وتطلعاتهما . لقد ساهمت الحضارة الاوربية ببلورة الشخصيات المختلفة عن بعضها في النشأة والتكوين حتى اقام الروائي حالة من التوتر بين الاطراف

المتصارعة . وان زواج فرح الاول والثاني وموت ألفريد الزوج الثاني، سياقات يتجلى من خلالها الصراع الثقافي والحضاري بين الشرق والغرب والتزام الشرقي بعاداته وتقاليده حتى لو انصهر في بودقة الحضارة الغربية .

كان مفيد نحلة المهيمن على البناء الخارجي للرواية ،وهيمنت فرح على البناء الداخلي ،التي يبدو للقارئ من خلالها ان الروائي لن يتدخل في حياة الشخصيات ومصائرها فأوهم المتلقي ايهاماً فنياً بابتعاده عن العالم الروائي وجعل الراوي العليم ينوب مكانه في السياق وتمكن من امتاع واقناع القارئ بوجود مجتمع جديد ،فكان موقع الروائي محدوداً خارج البناء ، وبدا وهو ينظر من زاوية بعيدة ، مفضلاً الحياد او الاختفاء على الرغم من علمه بتفاصيل الحوادث .

فرح شخصية محورية انموذجية متطورة ذاتياً ،اكتفى بها الروائي كي يكون دقيقاً في تصوير الوقائع ،وعبرت عن فكرته كاملة متفقة مع خصائص عالمها الداخلي في المجتمع الروائي فضلاً عن انها لم تكن شخصية واقعية . اختار الروائي اسماء مفردة للشخصيات عربية واجنبية وكنى وحاول ايهام القارئ بان لها اسر وعلاقات واقارب .

## بناء الزمن :

ويقصد به وقت وقوع الاحداث في الرواية ومدى مطابقتها لواقع الحال، والزمن – كما معلوم – متحرك غير ثابت.. مائع لا يمكننا الامساك به، فهو سرمدي وازلي وتعاقب ابدي وقد حاول مفيد نحلة ان يربط الزمن بالاحداث السياسية على الساحة الاردنية ليشعر القارئ باهمية الموضوع فكانت احداث ايلول زمن بدء الرواية ، الذي شهد احتدام الصراعبين بين الحكومة الاردنية وفصائل المقاومة الفلسطينية مع رصد لبعض افرازات الواقع ونتائج ما بعد الحرب من النواحي الاجتماعية والسياسية والاقتصادية ،فكان الزمن الطبيعي الخارجي للرواية يوم ٩/١٧ الذي حدده الراوي دون ان يحدد السنة (ادركت ذلك

حين دفعنا القدر ذات مرة لان نأوي تحت (سقف السيل) نجاور قيعان المجاري ، ننام مع الجرذان المتوالدة فيه .. كان ذلك ابان الفتنة في ايلول اوائل السبعينات ، كان ليل السابع عشر قاسياً ،افترش الناس في العتمة اجسادهم. شيخة (سيدة نصرة) تهلل بصوتها المتقطع ،وشيخة (فاطمة بدوي) تطبخ ما تبقى من حبات العدس على شخير حمدان المفلح ، والقذائف المستعرة تتراجم فوق السيل)(٢٣)

لقد اراد الراوي ان يضع يد القارئ على بدء الاحداث من خلال تحديد الزمن الخارجي ليكون مدخلاً الى الزمن الداخلي الذي يعد زمناً روائياً تخييلياً مكثفاً الغرض منه توافر الدوافع لسير السرد لانه قادر على الايحاء الفني وهو زمن احداث الرواية المتشابكة واحتدام الصراع ،لقد كان زمن الرواية زمناً واحداً وكأنها حكاية ، لكن تداخل الاحداث ،ومهارة الروائي هما اللذان انقذا الرواية من الرتابة والسأم (ان حوادث الرواية هي التي تجعل الزمن مجسداً ملموساً)(٢٤) فضلاً عن ترتيب الحوادث وعنصر التشويق. والزمن لا استقلالية فيه ويمكن ان يتصرف به الروائي ويسيره بحسب حاجة العمل الفني . وقد بدت رواية (أبعد من ذاكرة المدينة) رواية تأريخية تسجل لنا احداثاً في بقعة معينة من خلال ربطها بتأريخ احداث ايلول عام ١٩٧٠ ، التي ارادها الروائي مدخلاً ليعبر عن اوضاع ما بعد التاريخ وقد تلاعب بالزمن تقديماً وتأخيراً في تقنيات السرد كي يثير التشويق في نفس القارئ (ان الرواية العربية كالرواية الاجنبية تطورت فاستعملت الحاضر غالباً والمستقبل احياناً الى جانب الماضي ، وبدأت تعاف حوادث الحكاية المرتبة ترتيباً سببياً ومنطقياً ، وتهتم بالتلاعب بها تقديماً وتأخيراً))(٢٥) . لقد إنشغل مفيد نحلة بالحديث عن الواقع الأوربي باسهاب ، وحاول أن ينقل لنا صورة مشرقة له في الأخلاق والالتزام على لسان بطلته التي شعرت بالامتنان من ناسه وكأنهم المثال الذي يجب ان يحتذى ، ولم يتحدث عن الواقع العربي وماضيه أو مستقبله من خلال الأستشراف أو الرؤيا المشرقة التي يجب أن يكون عليها ، وأنهمك بالحديث عن العناصر الرديئة فيه التي لم تكن

متوازنة في بلاد الغرب وجعلها مثالاً للواقع العربي الذي نلمس فيه الخير الكثير ، بينما الواقع الغربي كما يصفه قائلاً على لسان فرح : ((كان الشارع يخرق المدينة طولاً على موازاة كنيسة الدوما المضاءة من جميع الجهات لم يكن امامي خيار ، فاسترد تحاول الترفيه عني وأخراجي من دائرة الحزن ، وتلقبات النفس ، توقفت (استرد) ، جذبتني من يدي ، أدخلتني على عجل هبطنا عشر درجات تحت الأرض لاحت لي حانة كبيرة تحت طبقة من الدخان الأورق ، فتيات من كل الأعمار يراقصن فتية من كل الألوان على إيقاعات موسيقية صاخبة ، لم يرق لي هذا التوهج الصارخ في البداية لكنني اندمجت فيه بعد لحظات)) (٢٦) . لقد كانت هذه الرواية تأريخية واقعية فشاعت فيها المصطلحات الزمنية المحددة مثل الليلة، الليل، النهار، اليوم ، والتحديد أحياناً بالساعة والدقيقة مما جعل الرواية محكومة بالدلالة جراء ذلك التحديد ((أن الهدف الجمالي من التحديد الدقيق للزمن الطبيعي داخل الرواية هو تحديد اتجاه القراءة لدى القارىء ، ليفهم حوادث ، ويفسر الرموز والدلالات في ضوء هذا الاتجاه وسبب ذلك أن الروائي يرغب أحياناً في أن يعبر عن فترة زمنية معينة، ويخشى من ألا يتمكن القارىء من متابعته فيها ، فيحدد له الزمن بدقة)) (٢٧). أن مفيد نحلة سرد الحوادث بعد وقوعها وانتهائها، وهو إسلوب أغلب الروائيين وكان على بينه كاملة من ذلك وقد تطابق عنده زمن السرد والحكاية مع إسترجاع بسيط : ((أتدرون كيف ينكمش العصفور على نفسه حين يتراءى له عقاب يحوم في السماء، هكذا أنا أصابتني رعشة العصفور الخائف من شيء يقترب منه ، توهمت للوهلة الاولى أني لازلت عاملة في شركة الأسواق الكبرى ، وحين تنبهت على أني أمرأة (الفريد) تدفق الدم في عروقي وانطلقت أبحث عن كلمات تليق بزوجة (الفريد) لا تحفظ فيها مكروه أصابني ذات يوم)) (٢٨) وأستعان الروائي بالمفارقة الزمنية في سرد الأحداث ليتمكن من السيطرة على ذهن قارئه على الرغم من عدم تطابق السرد مع الحكاية احياناً لاسيما في حديث فرح الى الفريد ((ودعاني الى تناول العشاء معه في ليلة حددها

هو بنفسه وقبلت ، تخليت مشيته الفقيرة وحركته الواثقة كما لـو أن وراءه حزناً آخر يعادل حزني))[٢٩] تطابق في المظهـر الفقير واختـلاف كبـير فـي الامكانـات والثراء هل هو تواضع او خدعه ؟ لا بـل أنـه مسألة نفسية جراء حادثـة وقعت لألفريد ، الذي آثر الأقتران بهذه الفقيرة المغتربة التي رمى بها الزمن الـى هنـاك دون أن تعرف كيف حدث ذلك :

((عرفته على نفسي

وأنا أمرأة عاملة في الأسواق ...))

كفى . أعرف كل شيء

ولكني أمرأة فقيرة !

ضحك (كعادتهم يضحكون كي يدخلوا الطمأنينة الى النفس الأدمية)

وأنت

فقير مثلك ، أما الفريد أبحث عن الألق العذري عن أمـرأة فـي مثـل عمـرك)[٣٠] الفريد لم يكن فقيراً كما يتوقـع قـارىء الحـوار بـل أنـه صـاحب أكـبر أسـواق فـي المانيا ، ورث عن أبيه مهارة في العمل فضلاً عن ذكائه وفطنتـه ويبـدو أن مـوت والده ولّد لديه عقدة التشرد والضياع .

((وحين مات والده تاركاً له هذه الثروة إزدادت حالـة التشرد عنـده حتـى زوجتـه التي كانت ترعاه ملت وضاقت بها الحياة وتركته ، وانتهى الأمل الذي تعقلـت بـه زمناً معه في التعايش مع الفريد الى ان انتهى الامر اليك وتغير حاله وحين رزق بـ (ساري) شعر بأزمة جديدة راحت تتحرك في داخله ، لا أدري ربما عـادت اليـه حالته ، أسر لي ذات يوم بأنه يشتاق لرؤية الفقراء وأنه عاقد العزم على مغـادرة نيفر في طريقه اليهم)) [٣١] عقدة نفسية غريبة جداً لما تغير الحـال حينمـا رزق بساري هل هـي اعـادة سـيناريو حياتـه مـع والـده ؟ يفـترض بـه أن يكـون فرحـاً

ومستقراً ولماذا الهرب الى عالم الفقراء ؟ . لقد كانت فرح تسترجع حياة الفقر التي عاشها في حي المصدار والتي أثارتها في نفسها تصرفات الفريد ((ابحرت مع الفريد في زمن عذري في عشق اسطوري حين يتحدث الي أقرأ سفر الحياة الاولى ، البدايات والتكوين وحين يستعصي علينا الجدل يتركني أغرق في أفكاري)) (٣٢) وقد أستفاد الروائي من الإسترجاع الزمني بأثارة كوامن البطلة التي راحت تحن الى المنبع قائلة :

((دارت الأفكار في رأسي حملتني الى (حي المصدار) عزمت على إرسال مبلغ من المال لأنفاقها على أيتام الحي وعائلاته المستورة (بحثت في دفاتري على عنوان اطمئن اليه ، شيخة أم حسن ... لا ... شيخة (فاطمة بدوي) ... هي الأخرى لن تكون قادرة على الوفاء بما أفكر فيه ، وقع بصري على سيد جعفر المخزوم ، فهو الأمين ، عقدت العزم على أن أرسل اليه مالاً فربما كان لي نعم الرجل الأمين)) (٣٣) .

إن الزمن عنصر رئيس في بناء العمل الروائي يتصرف به الكاتب على وفق مقتضيات العمل الفني عودة الى الخلف ((الإسترجاع)) أو الأنصهار مع الواقع لتجسيد حالة ضرورية أو الرؤية المستقبلية التي يرسم أبعادها فضلاً عن زمن الماضي الذي له الهيمنة على أزمنة الرؤية الأخرى والحديث عن أحداث وقعت هو السائد في رواية أبعد من ذاكرة المدينة .

بناء المكان :

المكان الطبيعي في العمل الروائي هو الفسحة التي تدور فيه الأحداث الدرامية ، وأما أن يكون حقيقياً ، أو مكاناً روائياً من صنع خيال الأديب المبدع، ويوجد تشابه شكلي بين الأثنين ، وقد حاول بعض الروّائيين والنقاد من المطابقة بين الأثنين ، ومجموع الأمكنة والأزمنة الروائية في بقعة معينة تشكل الفضاءات الروائية ، ورواية (أبعد من ذاكرة المدينة) دارت في فضاءات عديدة . فالمصدار

وعمان ، حي المصاروة وشارع طلال والوحدات الخ فضاء روائي أول في الأردن وبادمز ، وليمبورغ وكولن والبانهوف ونيقرب والراين ودوزلدروف وناساو .. الخ فضاء روائي ثان في المانيا، ومدريد وشارع سان جورج وطليطلة (توليدو) فضاء روائي ثالث في اسبانيا والفضاء الروائي يرسم لنا العلاقات بين شخصيات الرواية وأطرها وأبعادها ، وأنواع الأمكنة تحدد من قبل الناقد . بحسب تحليل النص الروائي . وتتضح صورة المكان من خلال الرواية وبنية السرد ، والأمكنة أنواع فهناك المكان المجازي والهندسي والجاذب والطارد والأليف ومكان ذو بعد واحد وآخر متعدد الأبعاد ومكان نفسي أو واقعي أو ذاتي أو تعبوي ، وقد أتضحت صورة هذه الأمكنة في الرواية ، فالمصدار وحي المصاروة أماكن طاردة ، ونيفرب ، وبادمز ، وليمبورغ أماكن جاذبة وأليفة ومدريد مكان جاذب ، وطليطلة مكان تأريخي أستذكر فيه المؤلف الحضارة الأسلامية وأثرها في الحياة الغربية ، وحاول الكاتب أن يعرض لما عناق الحضارات من خلال الشخصيتين فرح وهاري.

((في المدينة القديمة (الدشتات) المحصورة بين ثنيات نهر الراين في (دوزلدورف) عانقت (هاري) طويلاً ، راقصته كان عشاؤنا منثوراً على المائدة ، عشرات الراقصات من حولنا يصفقن في اعجاب ودهشة لعروسين تجاذبا سحر الشرق والغرب، أكثر ما كان يثير (هاري) في تلك الليلة انبعاث العطر الأسطوري من شعري الأسود المتهادي على كتفي العاري، رأيته يحدق فيَّ كما لو أنه يعشق أمرأة من عصر أغريقي))[٣٤] ويثير المكان أزمة نفسية عند الشخصية المغتربة وقد شعرت (فرح) بالأمتعاض في بلاد الغربة وأخذت تفكر بمسألة اللون والجنس وقضية التميز العنصري التي أوجدها الغرب أو أنه شعور المغترب بالضعة والامتهان: ((كانت الأضواء ترتمي على صفحة مياه (الراين) في ارتسام لؤلؤي ، النسمات الباردة تخترق صدري ، تنبه في الأحساس بأن هاري الذي بنيت عليه أملاً كبيراً يتباعد عني في جو غريب ، حينها أحسست بفارق اللون ، ربما لاحقته

أزمة الثقة حين اتخاذ القرار في أن المرأة التي ملكت عليه عشقه ليست من ذات الجنس واللون الذي يراه مبشراً لحياة أخرى))[٣٥]. تحدث الكاتب بجرأة وصراحة عن أمور تخص المرأة التي تتحرج في بعض الأحيان من الحديث عنها وذكر أماكنها فكان واقعياً في تجسيد مكان الفقر والعمل والسهرات وركض الناس وراء المال والنساء فضلاً عن ان الاجواء والأماكن الغربية لن تتمكن من أغراق الشرقي في خضمها ، على الرغم من أن البطلة كانت تعيش على أرضية هشة في عمان .

بناء السرد :

السرد نقل الأخبار والحوادث باسلوب حكائي ممتع يستهوي المتلقي لما فيه من جاذبية وتجسيد للأفعال ، والسرد في الرواية ((عرض موجّه لمجموع من الحوادث والشخصيات المتخيلة بواسطة اللغة المكتوبة)) [٣٦] . وهذه الرواية يغلب عليها طابع السرد ويندر فيها الحوار أو خطاب الأقوال ويكثر فيها خطاب الحوادث ، وقد بدأ الروائي يعرض الأحداث في حي المصدار وزواج فرح من حامد العايدي ثم تأزمت الاحداث في المانيا ولاسيما بعد ان حدث الانفصال واوت ((لورا)) بطلة الرواية الضائعة في خضم الحضارة الغربية .

((لولاكي لما كنت على حال من الكبرياء في هذه الساعة ، رحماك انت التي مسحت على وجهي بانا ملك الحنونة وجعلتني اجابه قدري بشيء من الجرأة والحيلة ، غفوت ، رحت ابحث عن حالة أمزح فيها بين الواقع والخيال)) [٣٧] .

وقد حصلت على تأزمات عديدة ، وحلول مختلفة بحسب طبيعة الازمة ، وكان آخرها أزمة ضياع الفريد والعودة به ميتاً وقد تعلقت البطلة بـ (ساري) كثيراً لأنه المستقبل والاستمرارية . شعرت فرح بالامتنان من لورا والمجتمع الالماني عموماً وذلك ما جعلها تتعلق ببلاد الغربة وتختارها سكناً لها .

وفي الختام كانت بطلة الرواية ممتنة من تصرفات المجتمع الغربي وقد حاول الكاتب أن ينقل لنا صورة وصفية سردية مشرقة من خلال سير الأحداث ولاسيما ((أن الصورة الوصفية تصف ساكناً لا يتحرك وأن الصورة السردية تدخل الحركة على الوصف أي تصف الفعل)) (٣٨) . وقد إتضح لنا أن العربي له القدرة على التآلف مع أي حضارة أخرى سواء كان رجلاً أم أمرأة ، وأن الأصيل إذا ما توافرت له الظروف المواتية فسيجعل من الغربة وطناً مع الحفاظ على حب الوطن الاول .

الملاحظ أن هذه الرواية كتبها صاحبها وهو صادق مع نفسه وقد إرتفعت في مواطن كثيرة الى مستوى الشعر فنلاحظ فيها تداخل الاجناس الأدبية على الرغم من وجود العديد من الأغلاط اللغوية والأسلوبية .

إختلف الكاتب عن الأدباء السابقين الذين تناولوا الموضوع نفسه فجعل بطلته تتآلف مع المجتمع الجديد وتقهر أسباب الغربة بينما ابطال الروايات السابقة كان الأفلاس المادي والروحي سبباً في عودتهم خائبين الى الوطن .

إن هذه الأعمال الروائية تعبر عن أزمة المثقف العربي حينما يعيش بين تأريخين وحضارتين وثقافتين ومدينتين ، وقد عالجت هذه الرواية علاقة الشرق بالغرب ، وإنسجام الفرد مع المجتمع الجديد إذا ما توافرت له أسباب المعيشة الهانئة ، فضلاً عن أن المرأة الشرقية لها القدرة على العيش في بيئات غير بيئتها وبمفردها ، كاسرة الطوق الذي فرض عليها والذي حاول أن يقيد حريتها وتصرفاتها ولم يمنحها الثقة بنفسها .

لقد تحدث مفيد نحلة بصراحة وصدق عن التآلف الحضاري الذي يتمنى ان يكون من خلال اشخاص الرواية لخلق مجتمع انساني ومتآلف كما هو مجتمع الرواية .

## هوامش البحث ومصادره :

١. معالم حضارة مصر القديمة ، محمد الخطيب ، منشورات اتحاد الكتاب العرب ١٩٩٣/٧ .
٢. دراسة نقدية في رواية من يوميات السيد علي سعيد ، د. عمر الطالب ، مجلة الجامعة ، ع٤ ، ١٩٨١ ، الموصل ٩٥ .
٣. رواية أبعد من ذاكرة المدينة ، مفيد نحلة ، ط١ ، ٢٠٠٠ ، دار الكرمل ، عمان ، غلاف الرواية بقلم خليل السواحري .
٤. نفسه ٨٥ .
٥. نفسه ٣٢ .
٦. نفسه ٥٥ .
٧. نفسه ٧٧ .
٨. نفسه ١١٤ .
٩. نفسه ٨٤ .
١٠. نفسه ٦٢ .
١١. نفسه ٧٩ .
١٢. نفسه ١٢ .
١٣. نفسه ٣٨ .
١٥. معجم مصطلحات الأدب، مجدي وهبة، مكتبة لبنان، بيروت ، ١٩٧٤/ ٦٥.
١٦. ينظر بناء الرواية العربية السورية ١٩٨٠-١٩٩٠ ، د. سمر روحي الفيصل ، منشورات اتحاد الكتاب العرب ١٩٩٥/ ٨٣ .
١٧. نفسه ٨٧ .
١٨. نفسه ١٠٠ .
١٩. نفسه ٤٠٦ .
٢٠. أبعد من ذاكرة المدينة ، ١٣١ .

٢١. المتخيل السردي عبد الله ابراهيم ، المركز الثقافي العربي ، بيروت ، الدار البيضاء ١٩٩٠ / ٦١ .
٢٢. أبعد من ذاكرة المدينة ، ٢٥ .
٢٣. البنيوية والتفكيك ، تطورات النقد الادبي س. رافيندراف ، ت خالدة حامد ، الشؤون الثقافية ، بغداد ، ٢٠٠٢ ، ص١٠٨ .
٢٤. بناء الرواية العربية السورية ، ١٥٨ .
٢٥. نفسه ١٦٣ .
٢٦. أبعد من ذاكرة المدينة ، ٧١ .
٢٧. بناء الرواية العربية السورية ،١٨٠ .
٢٨. أبعد من ذاكرة المدينة ، ١٤١ .
٢٩. نفسه ١٠٤ .
٣٠. نفسه ١٢٦ .
٣١. نفسه ١٦٢ .
٣٢. نفسه ١٣٩ .
٣٣. نفسه ١٥٦ .
٣٤. نفسه ٩٨ .
٣٥. نفسه ١١٩ .
٣٦. طرائق تحليل السرد الأدبي بنعيسى بوحمالة، منشورات اتحاد الكتاب العرب، ١٩٩٢ ، ٧١ .
٣٧. أبعد من ذاكرة المدينة ، ١١٥ .
٣٨. بناء الرواية ، د. سيزا قاسم ، دار التنوير ، بيروت ، ١٩٨٥/ ١٦٥ .